لأهل البرّ والبحر والعلي، إنه المليك الكريم الشجاع ، يبعث الرعب فى الأعداء، ويكسب الغنى جماعة الأصدقاء ، وجيشه جرّار وعسكره يملأ الأرض ؛ فلما سافر الخديو إلى الحج قال فيه :

مَلِكٌ تَتَوَّج بالوَقَار عَلَيْه مِنْ حُلَلِ المَهَابَة والكَمَالِ رِدَاءُ
يَسْعَى إلى الحَرَمِ الشَّريفِ مُسَرْبلاً بخشوعه وأمامه الأَضْوَاءُ

وهو على هذا الشعر الركيك يخرج علينا بصور ممسوخة فى تشطير ضمنه التاريخ فى الشعر على عادة العصر ، فسقط وأكثر من السقوط حتى عددنا المديح هزيلاً لا يسمو إلى ابتكار ولا يجرى مع الفحول فى مضمار .

ومحمود سامى البارودى أعاد للمديح أسلوبه المتين ولفظه القديم ، وأضاف إليه صوراً استقاها من العصر ، فاستعمل البرق فى تصوير بشر الخديوى ، وجعله كالطبيب فى شفاء الأمة ثم قال :

لا زلتَ فى فَلَكِ المَعَانِى كوكباً تُهدى الضِّيَاءَ لأَعْيُنٍ وقُلُوبِ

وقلّد القدماء كذلك فى امتداح حسنات المليك وخدماته للشعب ، وخيراته فى الوطن ، فقال إن مصر أصبحت فى عهده شرعة للورّاد ، يرعاها برأفة والد ، ويحميها بصولة أسد . وقدّس المشورة فى الحكم وهى حلية كل راع مرشد، أوصى بها الدين وتقيد بها الغربيون . ورأى فيه نوراً وهداية وسعداً وغنما للأمة والوطن . وهكذا قلّد القدماء فى رفعة المليك واتخذ التعابير العصرية سبيلاً إلى ذلك ، وحذف كلمة العرب والعجم واستبدل بها الشرق والغرب ، وقال بأن الخديو بعث السلم فى الناس ، وأزاح ضباب الحرب ، حتى دعا له بالخلود إلى قيام الساعة :

وَدُمْ عَلَى الدَّهْر فى مُلْك تعيشُ به مُرَفَّه النَّفْس حتَّى نفخة الصور

وسار حافظ إبراهيم على خطة البارودى فى مديح الخديو عباس الثانى